الإنسان

لمعة تشعّ فى كل كائن.. حياة تظهر فى كل موجود.. وتسير فى تطور الارتقاء مستمرة، لتبلغ الغرض الأسمى الذى هو حيازة العقل الراقى، والذاتية التى انطوى فيها العالم الأكبر لتنسجم مع نغمة الوجود الكلى، وترقى إلى الكمال الأعلى، وتفوز بالحياة الخالدة، وبالسعادة الحقة مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

قدرة عالية تفيض على ذرات السديم عناصر الحياة. وتمدها بما يستلزم نشوءها وارتقاءها، إلى أن تصير شمسًا نيّرة فى الفضاء اللانهائى، فى غضون الملايين من الأعوام..

فلا تزال تجرى لمستقر لها إلى أن تقذف من بركانها حممًا تدور حولها ولا يمضى عليها حين من الدهر، إلّا وترى هذه الشمس وقد

أصبحت مركزًا لسيارات تسبح فى أفلاكها، فتشكل منظومة شمسية لها نظام خاص..

فتخضع هذه السيارات للناموس الارتقائى، وتخفى جمراتها فى حميمها تحت طيات هذه الطبقات التى بردت وتجمدت. فتنتهز الكهارب هذه الفرصة لتنشئ من تموجات الأثير أصول العناصر المختلفة لتبرز إلى الوجود حياة العالم المادى بأشكالها البديعة

وقد أخذت هذه العناصر بالسير إلى الكمال فولدت نواة الحياة العضوية الأولى «بروتوبلازم»[1] Protoplasm. فابتدأت الحياة العضوية سيرها فتدرَّجت من البسيط إلى المركب. وترقّت من الأدنى إلى الأعلى، إلى أن نشأت يدُ القدرة الإلهية الموجودَ الأسمى فى أحسن تقويم. وجهزته بالعقل والإرادة والشعور..

وجعلته أهلاً لحمل الأمانة التى عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان.

ولم تهمل هذه القدرة شأن الإنسان بعد تحميله الأمانة بل تعهدته بالسير نحو الكمال، فدرجته من السذاجة الوحشية إلى الاجتماع والتمدين. ومن الجهل إلى العلم والمعرفة. فجعلته بذلك أرقى ما فى العالم المنظور من المخلوقات..

---

(١) ويطلق عليها «الهيولى». وهى المادة الحية الأساسية فى الخلايا النباتية والحيوانية. وهى مادة زلالية تتكون منها خلية الأجسام لعضوية.

قال القاضي الإمام أبو بكر بن العربي المالكي :

(ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان. فإن الله تعالى خلقه حيًّا، عالمًا قادرًا مريدًا، متكلمًا سميعًا، بصيرًا، مدبرًا حكيمًا، كليمًا. وهذه بعض صفات الرب جل وعلا. وعنها عبّر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى خلق آدم على صورته » يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها قال تعالى : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ وهو اعتداله وتسوية أعضائه؛ لأنه خلق كل شيء منكبًّا على وجهه، وخلقه هو سويًّا مستويا. وله لسان زلق ينطق به، ويد وأصابع يقبض بها، مزينًا بالعقل، مؤدبًا بالأمر[1]، مهذبًا بالتمييز[2]، مديد القامة يتناول مأكوله ومشروبه بيده)[3].

ولقد زوّده الله علاوة على ذلك بالعقل والإرادة، وبهما أعلى همته إلى التخلق بالكمال الإلهي، ناشدًا الحقيقة الإلهية متحديا بهما، متوحدًا معهما، ليحقق معنى وجوده، خليفة الله في وجوده..

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[4].

---

(١) جاء في تفسير القرطبي : « مؤديا للأمر ».

(٢) جاء في تفسير القرطبي : « مهديًا بالتمييز ».

(٣) عن كتاب « حياة الحيوان » للدميري جزء أول ص ٧٢ وأيضًا « تفسير القرطبي الجزء ٢٠ ص ١١٤.

(٤) سورة البقرة آية ٣٠ : ٢.

«خلق الله آدم على صورته، أو على صورة الرحمن»[1].

«تخلقوا بأخلاق الله»[2].

وهذا يدلنا على أن الإنسان أحسن خلق الله باطنًا وظاهرًا، جمال هيئة، وبديع تركيب: الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه، واليدان وما بطشتاه، والرجلان وما احتملتاه.

وافتتح ابن بختيشوع الطبيب كتابه فى الحيوان بالإنسان قائلاً: «إنه أعدل الحيوان مزاجًا، وأكمله أفعالاً، وألطفه حسًّا، وأنفذه رأيا، فهو كالملك المسلط القاهر لسائر الخليقة والآمر لها.. وذلك بما وهب الله تعالى له من العقل الذى به يميز على كل الحيوان البهيمى، فهو بالحقيقة ملك العالم؛ ولذلك سماه قوم من الأقدمين العالم الأصغر..»[3].

بل إن الإنسان قد انطوى فى ذاته العالم العلوى والسفلى. وجمع - رغم صغر ما يشغله من هذا الكون - جميع ما فى الكون من تفاعلات وعناصر، فهو كما يقول الإمام ابن العربى:

---

(١) حديث شريف.

(٢) حديث شريف.

(٣) عن كتاب «حياة الحيوان» للدميرى، جزء أول ص ٧٤.

وتـزعم أنـك جـرم صـغير   وفيـك انـطوى العـالم الأكبر

« فالجسم كالعرش، والنفس كالكرسى، والقلب كالبيت المعمـور، واللطائف القلبية كالجنان، والقـوى الـروحانية كالملائـكة، والعينـان والأذنان والمنخران والسبيلان والـذائقة والشـامّة، والـلامسة والنـاطقة والعاقلة كالكواكب السـبعة السـيارة.. وكما أن رئـاسة الـكواكب بالشمس والقمر وكل منهما يستمد من الآخر، فـكذلك رئـاسة قـواك بالتصور والعقل. وكما جعل الله فى السنة وفى العـالم الـكبير ثـلاثمائة وستين يومًا، فكذا جعل فيك عددها مـن المفـاصل. وكما جعـل فى العالم الكبير أرضًا وجبالاً ومعادن وبحارًا وأنهارًا وجداول وسواقى وطينًا ونباتًا وترابًا ومفاوز وخرابًا وعمرانًا وريـاحًا ورعـودًا وصـواعق ونهـارًا ونهارًا وليلاً، جعل فيك نومًا ويقـظة وسـنين معـدودة لعمـرك وولادة وصبا وشبابًا وكهولة وشـيخوخة ومـوتًا جعـل جسـدك كالأرض، وعظامك كالجبال، ومخك كالمعـادن، وجـوفك كالبخـار، وأمعـاءك كالأنهار، وعروقك كالجداول والسـواقى، وشـحمك كالـطين، وشـعرك كالنبات، ومنبته كالتراب، وظهـرك كالمفـاوز، وجثتـك كالخـراب، وأنسك كالعمران، وتنفسك كالـرياح، وكلامـك كالـرعد، وصـوتك كالصواعق، وبكاءك كالمطـر، وسرورك كالنهـار، وحـزنك كالليـل، ونومك كالموت، ويقظتك كالحياة، وسنى أجلك كالبلـدان، وولادتـك كابتداء سفرك، وصباك كالـربيع، وشـبيبتك كالصـيف، وكهـولتك

كالخريف، وشيخوختك كالشتاء، وموتك كانقضاء أيام سفرك..»[1]

* * *

ولقد عرّف أبو حيان التوحيدى الإنسان بأنه: «هو الشئ المنظوم بتدبير الطبيعة للمادة المخصوصة بالصور البشرية، المؤيد بنور العقل من قِبَل الإله؛ وهذا وصف يأتى على القول الشائع عن الأولين أنه. حىّ ناطق مائت، حى من قبَل الحسّ والحركة، ناطق من قِبَل الفكر والتمييز، مائت من قبل السيلان والاستحالة.. فمن حيث هو حىّ شريك الحيوان الذى هو جنسه؛ ومن حيث هو مائت هو شريك ما يتبدّل ويتحلل: ومن حيث هو ناطق هو إنسان عاقل حصيف؛ ومن حيث يبلغ إلى مشابهة الملك بقوة الاختيار البشرى، والنور الإلهى، أعنى ينعت فى حياته هذه التى وهبت له بدءا، بصحة العقيدة، وصلاح العمل، وصدق القول - هو ملك. فإن لم يكن ملكًا، فهو جامع لصفته، ومالك لحليته. ولما كان جنسه مشتملاً على التفاوت الطويل العريض، كان نوعه مشتملاً على التفاوت الطويل العريض. ومن كان نوعه كذلك كانت آحاده كذلك. وكما أن الجنس يرتقى إلى نوع كامل، كذلك النوع يرتقى إلى

(١) عن كتاب «إزالة اللبس عن حقيقة النفس» للسيد إدريس بن الشريف الحسنى العلوى. مخطوطة مطبوعة طبعة حجرية بفاس سنة ١٣٢٢ هـ.

شخص كامل »[1].

وهذه نظرة الأولين والآخرين من الفلاسفة والحكماء.. هو أن الإنسان سيد الطبيعة وكمالها، وهو بما فيه من شوق للحقيقة وتطور للكمال سيعطى يومًا ما صورة أروع لكماله فى جمال جسده، وقد أعطى.. وفى كمال قدرته وما يزال يعطى.. وفى إحاطة عقله وهو فى طريقه لذلك، مما يبشر به علماء الطبيعة باسم الإنسان « السوبرمان »، أو الإنسان الكامل الأمثل كما تصوِّره الفيلسوف « نيتشه » Nitche بصورة تمهد لعصر المدينة الفاضلة.

فهل يعقل بعد هذا الرقى والتكامل الذى اقتضت الحكمة الإلهية العالية أن تتعاقب عليه ملايين السنين والأحقاب فى تكوين حقيقة الإنسان وعقله الذى هو الغرض الأسمى من رقى المخلوقات أن تجعله هباء منثورًا تذروه الرياح، كأن خالقه يلهو به ويعبث. ومتى وصل إلى أعظم غاية يمكن الوصول إليها فى هذه الدنيا يطرحه من يده كأنه من سقط المتاع؟..

كلاّ، ثم كلاّ.. لا يقبل ذلك من له أدنى إدراك صحيح.. لأننا إذا أقررنا بوجود النظام فى الكائنات الذى سلّم به العلم الطبيعى يلزمنا أن نقرّ بوجود المنظم الحكيم.. وإذا سلمنا بوجوده استحال

---

(١) عن كتاب « الإمتاع والمؤانسة » لأبى حيان التوحيدى، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، الجزء الثالث ص ١١٢ - ١١٣. لجنة التأليف والنشر ١٩٤٤.

علينا أن نتصوّر أن هذا المنظم يبيد أسمى مخلوقاته عندما يصل إلى الدرجة العليا من الكمال..

إذن فالعقل السليم لا يقبل فناء حقيقة الإنسان وذاتيته. ولكن..

ما هو الإنسان؟.. وما حقيقته؟.. وماذا يكون ذلك المخلوق الذى خلقه الله على صورته؟.. وجعله خليفة فى الأرض؟ وفضّله على الملائكة، وأمرهم أن يسجدوا له فسجدوا..

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾[1].

من يكون ذلك المخلوق الذى أكرمه ربّه ونعّمه. فنظر فى الكون واتسعت بصيرته إلى إدراك المعانى والصور، بما أودع فيه من سرّ العقل، وهو سرّ الوجود؟..

إن الله تعالى يقول:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين﴾[2].. ويفسّر هذه الآية قوله تعالى: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتًا﴾[3]..

(١) سورة حجر آيات ٢٨ و٢٩ و٣٠: ١٥.

(٢) سورة المؤمنون الآيتان ١٢ و١٣: ٢٣.

(٣) سورة نوح آية ١٧: ٧١.

فالإنسان إذن من سلالة من طين ؟. نعم.. أليس يأكل النبات، ويتغذى بالحيوانات.. وهل النبات إلاّ من الأرض يمتصّ غذاءه من الطين بواسطة الجذور فتحوّل التراب إلى نبات، والنبات يأكله الحيوان. ثم النبات والحيوان يتغذى بهما الإنسان. فهو من سلالة من طين. ثم هذا الغذاء بعد أن يتحول فى بدن الإنسان إلى دم ولحم وعظام يتحول منه النطفة. فإذا نظر الإنسان نظرة محقق رأى أنه يتغذى من الطين. ثم إذا فكر تمّ خلق وجد جوابًا على هذا أنه: ﴿خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب﴾[1].

هذا هو الإنسان الذى نراه.. هذا هو تكوينه وخلقه.. أوّله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك حامل العذرة.. نراه يتغذى كما يتغذى الحيوان.. وينمو كما ينمو النبات.. نراه كائنًا يمشى على قدمين لا يختلف كثيرًا عن تلك التى تحبو على أربع..

إذن فالإنسان يطلق على معنيين:

أحدهما: محسوس مشاهد يراه البصر، ويحسّه اللمس، وهو قابل للفناء، ميت بطبعه..

والثانى: حىّ بالذات، بل هو عين الحياة..

الأوّل محسوس بالحواس الخمس..

---

(١) سورة الطارق الآيتان: ٦، ٧: ٨٦.

والثانى لا يدرك إلّا بالعقل..

وسُمّى الأوّل إنسانًا من باب المجاز كما يُسمّى ضوء الشمس شمسًا. فكما أن ضوء الشمس يستدلّ به عليها، كذلك الإنسان الظاهر ظل وشبح للإنسان الحقيق؛ لأنه مظهر أفعاله، ومحل تصرفاته.

والإنسان الحقيق إذا خلا بنفسه، وتجرَّد عن النزوع إلى عالم الحسّ وخلع بدنه بعَزْله عن إدراكه، رأى نفسه عالمًا معنويًّا حيًّا. عالمًا بذاته لا يحتاج فى إدراكها إلى غيره.

والإنسان الحقيق هو الذى سمّاه الله بالنفس فى قوله تعالى:

﴿ونفس وما سوّاها. فألهمها فجورها وتقواها﴾[1]..

وهو الإنسان المشار إليه فى الآية الكريمة:

﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾[2].

فأشار بأحسن تقويم إلى الفطرة الطاهرة القابلة للعلوم والحكمة، والمِقرَّة بالربوبية..

والإنسان الحقيق إنما هو بيت شريف، وهيكل منيف.. كان يسميه هرمس الحكيم: بيت الله..

---

(١) سورة الشمس الآيتان ٧، ٨: ٩١.

(٢) سورة التين آية ٤: ٩٥.

ويسميه سقراط: الهيكل المقدس.

والإنسان الحقيقى يملك هيكلاً، أو محرابًا، أو «قدس الأقداس»..

إنه ذاتية، سرّ، حياة باطنية، ذات عميقة، عالم أصغر: ويقول السيد المسيح: «أنتم هياكل النور الإلهى»

وهذا الإنسان الحقيق هو الذى قال عنه أبو الفتح البستى فى نونيته:

ياخادم الجسم كم تسعى لخدمته	أتطلب الربح فى مافيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها	فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

كما إن الإنسان ليس إنسانًا بصورته، فإن الصورة يشترك فيها الإنسان والحيوان. وكم من غبىٍّ فى صورة جميلة، وكم من منحط فى صورة رائعة. وفى ذلك ورد الحديث: «إياكم وخضراء الدمن. قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله. قال: المرأة السوء ذات الوجه الحسن». وكم من قبيح الصورة كبير القلب والعقل.. ولقد كان الجاحظ وسقراط مثالين على ذلك.. ولقد قيل فى ذلك:

ماالمرء إلّا قلبه ولسانه	وسواهما الحيوان فيه شريك

وذلك مصداق لقول الرسول الكريم «المرء بأصغريه: قلبه ولسانه».

تركيب الإنسان :

الإنسان كما نراه فى تكوينه وخلقه يتركب من : جسم، ونفس، وروح . .

أما الجسم فهو عبارة عن الهيكل العظمى المكسو لحمًا وشحمًا كما نراه بالعين المجردة. ويمكن وصفه بهيكل أو قالب يقام لإنشاء بناء مطلوب. ومتى تم العمل أزيل الهيكل وبقى البناء. ويمكن أن نعتبره وعاءً ماديًا نسكن فيه إلى حين. وحالما يعترى هذا الجسد المادى أى عطب ويصبح غير قابل للسكنى فنحن نخرج منه ونتركه جثة هامدة مظلمة. وهذا ما يسمونه بالموت.

وأما النفس فهى وإن كانت سرًا غامضًا لا يصل إلى إدراك كنهها العقل الإنسانى، إلاّ أن مظاهرها وآثارها تبدو جلية فى القوى التى تسيِّر جسمنا وتدير شئون حياتنا الإنسانية من : التفكير، والإرادة، والوجدان.

فإذا قلت مثلاً : « إنى ذاهب إلى البيت » فالذاهب فى الحقيقة هو نفسك وذاتيتك لا جسمك وبدنك. والنفس هى التى تحمل البدن وتسوقه إلى ذلك المكان لا عكسه.

والنفس هى الشيء الذى يشير إليه كل واحد بقوله : « أنا ». وهى الجوهر اللطيف الحامل لقوّة احياة، والحسّ، والحركة والإرادة.

وهى مجرّدة عن المادة، قائمة بنفسها، غير متحيزة، مشتبكة بالبدن اشتباك الماء بالعود الأخضر، ومتعلقة به للتدبير والتحريك.

فنعلم من هذا أن البدن ككساء للنفس تابع وخاضع لأمرها. كما أن الثوب كساء للبدن تابع ومتحرك به. فإذا كانت آثار مظاهر الشعور محسوسة وظاهرة فى حياتنا، تلك المظاهر التى لولاها لما تكوّن الجسم وحتى الهيكل الإنسانى، فلا بدّ لهذه المظاهر من شىء تصدر عنه؛ لأن الجسم لا يمكن أن يولد تلك القوى لكونه تابعًا لها، ووجوده متوقف عليها. كما أن الأسلاك الكهربائية لا تولد الكهرباء بل تحملها وتبرزها عندما يوصل السلك بالتيار الكهربائى.

والنفس هى الحقيقة الذاتية المفيضة على الجسم الإنسانى ودماغه وأعصابه وحواسه قوى الحياة من النشوء والنمو والتطور. والقائمة بتدبير نظام البدن بالتركيب والتحليل. فأجسامنا، ومراكز قوانا بمقتضى الناموس الحيوى فى تحلل وتركب مستمر وتجدد دائم. وليست قوّة الناموس الحيوى وفاعليته مستمدة من نفسه أو من نظام البدن، بل إن الناموس الحيوى يستمد قوّته من النفس؛ لأن النظام لا يكون بدون منظم، والحركة لا تحصل بلا محرك. وقد نرى الشىء يتحرك بنفسه كما فى الساعة، ولكن بأدنى تأمل يتبين لنا أن الحركة ليست من نفسها، بل هى نتيجة اختراع المخترع وتنظيمه.

كما أن أظهر الآثار التى يُرى فيها جلال ذات الحق، وكمال صفاته، إنما هو معرفة النفس كما قال تعالى:

﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[1].

﴿وفى الأرض آيات للموقنين. وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾[2].

والحكمة التى استقر عليها كل المفكرين قديمًا وحديثًا هى معرفة النفس على أنها الطريق لمعرفة أسرار الوجود الإلهى. فكلمة سقراط الجامعة: «اعرف نفسك» هى فى جلال إحاطتها عند رسول الإسلام القائل: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

فالنفس هى التى تبنى، وتنظم، وتسيِّر، وتنسج هيكل الجسم، لأنها مصدر الناموس الحيوى فى الإنسان.

وبفاعلية هذا الناموس تلتئم الجروح، وتؤسى الكلوم، وتتجدد الخلايا فى كل أجزاء الجسم الإنسانى، ويُعاد نمو الأنسجة البشرية.. ومع هذا التجدد لا يضيع من ذكرياتنا أى شىء. فلو طرأ على أذهاننا النسيان ونسينا بعض معلوماتنا فإن ذلك لا يزول ولا يذهب أدراج الرياح كأجزاء الجسم، بل يكون منقوشًا ومثبتًا فى خزانة النفس التى نعبِّر عنها اليوم فى علم النفس (بالعقل الباطن). والعقل الباطن لا يحفظ ما تعلمناه فى حياتنا الحاضرة فقط، بل يحفظ لنا

---

(١) سورة فصلت آية ٥٣: ٤١.

(٢) سورة الذاريات الآيتان ٢٠، ٢١: ٥١.

كثيرًا من صور حياة أجدادنا الذين عاشوا قبل آلاف من السنين[1].

فأكثر تلك الصور الغريبة، والرموز العجيبة، التى تتراءى لنا فى أحلامنا إن هى إلا موروثات السلف المحفوظة فى خزانة عقلنا الباطن.

إذن فقد تقرر لدينا بواسطة العلم الطبيعى أن أجسامنا برمتها تتجدد حتى خلايا أدمغتنا. فلو كان التفكير والتذكر من خصائص تركيب المادة وفاعليتها للزم أن لا يبقى أثر من معلوماتنا وذكرياتنا السابقة؛ فبقاء الذكريات يدلّ على أنّ فينا ذاتية ثابتة غير منظورة لا يعتريها التبديل والتحوير، ولا تمسّها أيدى التركيب والتحليل.

وهذه الذاتية هى حقيقة الإنسان ونفسه الخالدة. ولله در القائل :

كمل حقيقتك التى لم تكمل ... والجسم ضعه فى الحضيض الأسفل
أتكمل الفانى وتترك باقيا ... هملاً وأنت بأمره لم تكفل
الجسم للنفس النفيسة آلة ... ما لم تكملها به لم تكمل

---

(١) عن كتاب «العقل منبع الحكمة» للمؤلف، ارجع أيضًا إلى كتاب «الأحلام والرؤى» للمؤلف.